

ملاحق الثقافة العربية الإسلامية

في كتاب كليلة ودمنة

د. أحمد محمد علي

أولاً: هدف البحث ومنهجه:

من بين الأهداف التي يسعى إليها هذا البحث تحديد الملاحق التي تركتها الثقافة العربية الإسلامية على كتاب كليلة ودكمة بوصفه من أقدم الآثار الأدبية النظرية المدونة لدينا، مع أنه يرتد في أصوله إلى الثقافيين الفارسية والهندية، وأما الممنهج المتبع في هذه الدراسة فيحسن توصيفه فيما يأتي:

الإفادة من المباحث الصورولوجية القائمة أساساً على المقارنة بين الصور التي انتهت إلينا من كتاب كليلة ودكنة وأصوله في الثقافتين الهندية والفارسية، وقد أمكن القيام بمثل هذه المقارنة بعد أن عثر هرتل على كتاب (بنج تنترا) ومعناه خمسة أبواب، وهو كتاب أصيل في تراث الهند، وكان فرانكلين أدرجتون قد نقله من اللغة السنسكريتية إلى الإنكليزية، ثم ترجمه عبد الحميد يونس من الإنكليزية إلى العربية. ثم وسعنا مجال المقارنة لتشمل النسخة الفارسية المنقولة عن النسخة العربية التي ترجمها ابن المقفع عن الفهلوية.

تتبع مواضع التصرف في النسخة العربية للكتاب بطريق ابن المقفع، وذكر الأسباب التي دعت إلى جعل الكتاب جزءاً من التراث العربي. بيان أثر كتاب (كليلة ودمنة) في المؤلفات السردية العربية التي جاءت بعده.

ثانياً: كتاب كليلة ودمنة:

يرجع أصل كتاب (كليلة ودمنة) إلى الثقافة الهندية، بوصف الهند مهذاً للقصص الحكيمية التي انتقلت إلى الثقافات العالمية بما فيها الغربية، إذ لمح

الباحثون تردد حكائيتين من حكايات الهند في الآثناء اليونانية واللاتينية الأولى: «حكاية حمار في جلد نمر» التي انتقلت إلى التراث اليوناني بعد أن شملها بعضُ التحوير ليغدو اسمها حمارًا بجلد أسد». والحكاية الثانية هي «حمار بلا قلب وبلا أذنين»، التي ورت بصورة مختصرة عند «ايسوب» و«بابيروس»^(١).

ومما يشير إلى الأصل الهندي لحكايات (كليلة ودمنة) ظهور كتابي هنديين: أحدهما عثر عليه (هرتل) وهو كتاب «بنج تنترا» ومعناه خمسة أبواب، وهذا الكتاب كما يزعم ألفه الحكيم الهندي «برهمن وشنو» نحو سنة ٣٠٠ م، في حين لم يذكر د. عبد الحميد يونس في مقدمة ترجمته هذا الكتاب شيئاً عن مؤلفه، وإنما ذكر أن كتاب (بنج تنترا) قد ظهر بعد كتاب «كوطيله أرثاشاستره» الذي ألف على وجه الترجيح بين عامي ١٠٠ ق.م و ٥٠٠ م ولارتما كان الراوية في (بنج تنترا) هو نفسه مؤلف الحكايات أعني «قنصو شرماني». والكتاب الآخر «هتوبادشا» ومعناه نصيحة الصديق ذكره د. عزام في مقدمة طبعته كتاب (كليلة ودمنة)، دون أن يذكر اسم مؤلفه أو موضوعاته.

ويشير د. عزام إلى أن الملحمة الهندية المسماة بـ«المهاباراتا» قد انطوت على إشارات لثلاثة أبواب من أبواب (كليلة ودمنة) وهي: باب الجرذ والسنور وباب الملك والطائر وباب الأسد وابن آوى، كما أشار إلى مثل هذه الأبواب في كتاب آخر هندي اسمه «هرونجه»^(٢).

وثمة إشارة عرضها البيروني في كتابه «تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في

(١) البنجا تنترا، ترجمة د. عبد الحميد يونس ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٠ م

ص: (١٥).

(٢) عزام، عبد الوهاب (كليلة ودمنة لابن المقفع) مقدمته ص: (١٧).

العقل أو مردولة» تدل على صلة كتاب (كليلة ودمنة) بالأصل الهندي (بنج تنترا) في قوله: «ولهم فنونٌ من العلم أُخِرُ كثيرةٌ وكتبٌ لا تكادُ تُحصى ولكني لم أُحطُ بها علمًا، وبودي إن كنت أتمكن من ترجمة كتاب (بنج تنترا) وهو المعروف لدينا بكتاب (كليلة ودمنة)، فإنه تردد بين الفارسية والهندية والعربية على ألسنة قوم لا يؤمن بتغييرهم إياه كعبد الله بن المقفع في زيادته باب برزويه فيه قاصدًا تشكيك ضعيفي العقائد في الدين وكسرهم للدعوة إلى مذهب المنانية. وإذا كان متهمًا فيما زاد لم يخلُ عن مثله فيما نقل»^(١).

وواضح أنّ قول البيروني يثير جملة من المشكلات، فهل حقًا كتاب (كليلة ودمنة) هو نفسه كتاب (بنج تنترا)؟ وإذا كان البيروني لم يتمكن من ترجمة (بنج تنترا) لسبب نُجهله فكيف قطع بأنّ كتاب (كليلة ودمنة) هو نفسه كتاب بنج تنترا؟ والأمر الآخر المثير في قوله البيروني تشكيكُه في ترجمة ابن المقفع فهل نقل ابن المقفع الكتاب نقلًا حرفيًا أمينًا أم أنه قد تصرف فيه؟

وجهة الشك في مقولة البيروني أن كتاب (بنج تنترا) الذي عثر عليه «هرتل» حديثًا، ثم نقله إلى الإنكليزية، «فرانكلين أدرجتون» أستاذ اللّغة السنسكريتية بجامعة (ييل) نقلًا حرفيًا من النسخة الهندية الموثقة كما يزعم، لم ينطو إلا على خمسة أبواب من (كليلة ودمنة) وهي: باب الأسد والثور وباب الحمامة المطوقة وباب البوم والغريان وباب القرد والغيلم وباب الناسك وابن عرس، وقد جاءت تسمية الأبواب في (بنج تنترا) مخالفة لأسماء الأبواب في (كليلة ودمنة) مثل أن يكون عنوان الباب الأول في (بنج تنترا) (التفريق بين صديقين) يقابل باب (الحمامة المطوقة)، والثالث (الحرب والسلام) يقابل باب (البوم والغريان) والرابع

(1) البيروني، أبو الريحان (تحقيق ما للهند) ط ليدن ١٨٨٧ م ص: (٧٦).

(الخسران) يقابل (القرد والغيلم)، والخامس (العمل الطائش) يقابل باب (الناسك وابن عرس). وذكر د. عزام أن كتاب (بنج تنترا) ضم باب السائح والصواغ إلى باب الأسد والثور، وهو الأمر الذي تخلو منه الترجمة العربية المختلفة يفيض في عدد أبوابه عما جاء في كتاب (بنج تنترا)، إذ تضمن واحدًا وعشرين بابًا، وإذا وضعنا جانبًا المقدمات وتركنا الأبواب الأخيرة التي ألح الدكتور عزام أنها موضوعة بسبب خللٍ بعض النسخ منها، بقي أربعة عشر بابًا أصليًا في الكتاب، منها ثمانية أبواب معروفة في كتب الهند: خمسة في كتاب (بنج تنترا) وثلاثة في (المهاهاراتا) وأما الأبواب الباقية فليست معروفة في تراث الهند وهي باب الفحص عن أمر دمنة وباب إبلاد وإيراخت وشادرم ملك الهند وباب اللبوء والأسوار وباب الناسك والضيف وباب ابن الملك وأصحابه. وهذا يحيل على تساؤل مهم: هل زيدت هذه الأبواب على الأصل الهندي بطريق ابن المقفع أو غيره، أم أن أصول كتاب (كليلة ودمنة)، قد ضاع قسم منها؟ وعلى كل حال ليس كتاب (بنج تنترا) هو نفسه كتاب (كليلة ودمنة)، وإنما قد يكون جزءًا منه، لأن مادة (كليلة ودمنة) توزعت بين أطواء أربعة وكتب هندية: (بنج تنترا) و(المهاهاراتا) و(هتوبادشا) و(هرونجه)، وكان كل كتاب من هذه الكتب قد انفرد عن غيره فيما أخذه عن الكتاب الأصل، إضافة لذلك فإن ما جاء في كتب الهند من مواد كتاب (كليلة ودمنة) لا يزيد عن ثمانية أبواب، والكتاب كما هو موجود في النسخ العربية بلغ واحدًا وعشرين بابًا.

لقد أقرّ الدارسون أن الكتاب قد زيد في أبوابه من قبل الفرس الذين نقلوه من الهندية، كالمقدمة التي وضعها برزويه الطبيب، كما زاد ابن المقفع بابًا سماه عرض الكتاب، إضافة لباب بعثة برزويه الذي وضعه بزرجمهر الحكيم الفارسي،

والذي رأى فيه د. عزام أنه زيد في النسخ العربية فحسب، مما حملة على الظن بأن هذا الباب قد أضيف إلى الكتاب بعد ابن المقفع^(١).

وأما ما يتصل بترجمة ابن المقفع لأصول كتاب (كليلة ودمنة) فكانت ملاحظة البيروني موضع نظر عند كثير من الباحثين كأحمد أمين الذي استشف أن ابن المقفع لم يترجم الكتاب ترجمة حرفية بل حوّر فيه ليتفق والذوق العربي الإسلامي، وذوق المتأدبين في عصره، كما أنه أضاف بعض الأبواب كباب الفحص عن أمر دمنة الذي وجد فيه نفحة إسلامية ظاهرة، وهذه الملاحظة بالطبع تخالف ما أشار إليه البيروني في مقولته السابقة مثل أن يكون تصرفه في الكتاب جاء في غير مصلحة العقيدة الإسلامية.

ويرى أحمد أمين أنّ هنالك أسباباً دفعت ابن المقفع لترجمة كتاب (كليلة ودمنة) من الفهلوية إلى العربية يحددها في قوله: «فلعل ابن المقفع لم يستطع أن يواجه المنصور بأكثر مما واجهه به في رسالة الصحابة، وقد مزج نقده بكثير من المدح للخليفة والثناء عليه، ونسب أكثر الشدة التي يراها إلى غيره، ولكن هذا لم يشفِ غلته، فرأى أنّ أسلم طريقة أن يترجم (كليلة ودمنة) ويزيد فيه ليعمل الكتاب في الخلفاء والرعية ما فعله في الهند وفارس...»^(٢).

والواقع أنّ أحمد أمين قد أفاد في هذا الرأي من إشارة ابن خلكان حول ما إذا كان ابن المقفع قد ترجم كتاب (كليلة ودمنة) أو أنه كان من تأليفه^(٣). وصحيح أن أمين لم يرجح وضع الكتاب من قبل ابن المقفع إلا أنّ إشارته إلى

(1) المرجع نفسه ص: (٣٨).

(2) أمين، أحمد (ضحى الإسلام) ط القاهرة ١٩٣٣ م ص: (١/١٢٣).

(3) ابن خلكان (وفيات الأعيان) ص: (٣/١٢٣).

الزيادات فيه تشي بأن ابن المقفع قد أضفى على الكتاب روحًا عربية إسلامية، بمعنى أنه زاد فيه فلم يكن أمينًا في الترجمة وهي المسألة نفسها التي أثارها البيروني في قوله السابق.

إنّ القول بأنّ كتاب (كليلة ودمنة) من تأليف ابن المقفع لا يرقى إلى الصواب، لأنّ قسمًا كبيرًا منه ثابتٌ في أصول كتب الهند، وما من شك أن نسخته العربية قد زيد فيها من قبل ابن المقفع ومن قبل غيره، فالكتاب ارتحل من ثقافة إلى ثقافة ومن تراث أمة إلى تراث أمة أخرى، وقد تركت عليه كلُّ أمة احتوته بصماتها، مثل أن يضع الفرس بعضًا من المقدمات على الكتاب حتى إذا ما انتهى الأمر إلى العرب وضعوا بين يديه بعض المقدمات أيضًا، وهذا الصنيع لم يكن بطريق ابن المقفع وحده على أية حال، بل كان من قبل عدد آخر من المترجمين، فالكتاب تُرجم إلى العربية أكثر من مرة كما يشير حاجي خليفة في كتابه «كشف الظنون» في قوله: «ترجمه في الإسلام عبد الله بن المقفع كاتب أبي جعفر المنصور من اللّغة الفارسية إلى اللّغة العربية، ثم نقله من الفارسية إلى العربية عبد الله بن هلال الأهوازي ليحيى بن خالد البرمكي في خلافة المهدي وذلك في سنة خمس وستين ومئة»^(١)، وقد ترددت تلك الإشارة في بعض النسخ الفارسية كترجمة أبي المعالي نصر الله منشي الذي أشار في مقدمته إلى الترجمة السريانية المأخوذة من الفهلوية وترجمة ابن المقفع المنقولة عن الفهلوية أيضًا، وترجمة عبد الله بن هلال الأهوازي الذي يُرجح أنّه نقلها

(١) حاجي خليفة (كشف الظنون) ص: (٣٢٤).

عن الفهلوي^(١)، وترجمة أنوار سهيلي الكاشفي المنقولة عن النص العربي الذي أخذه نصر بن عبد الحميد من العربية إلى الفارسية في القرن السادس الهجري كما يذكر فلكنر في جدول^(٢). والزيادات التي لحقت بالكتاب واضحة كالتي انطوت عليها المقدمات التي وضعت بين يدي الكتاب وهي بالطبع ليست من أصله، وأما أغلب الأبواب التي تضمنها فهي في الحقيقة هندية الأصل، فعدم وجودها كاملةً في التراث الهندي لا يعني أنّها ليست من ذلك التراث، ومن المهم أن نشير إلى أنّ عنوان الكتاب غير مذكور في كتب الهند، وإشارة البيروني تدل على ذلك، وأكبر الظن أن للكتاب اسماً آخر في الأصل، أو أن أصله جملة من الحكايات وضعتها المخيلة الشعبية الهندية دون أن تقرها باسم محدد، ذلك لأن أغلب من اهتم بهذا الضرب من الحكايات أدخلها في الموروث الشعبي الهندي أعني الفلكلور، وقد أيّدت أبحاث العالم الألماني

(1) ورد في كتاب كليلة ودمنة ترجمة أبي المعالي نصر منشي تحقيق سيد علي رضوي بها بادي: «يس ار ابن المقفع جند نفر ديكر نيز به ترجمه كليله برداختند از آن جمله است عبد الله بن هلال الأهوازي كه اين ترجمه را به فرمان يحيى برمكي به سال ١٦٥ هجري» ص: نه.

(2) يذكر فلكنر أن كتاب كليلة ودمنة الهندي قد انتقل إلى اللغة التبتية والفهلوية (الفارسية القديمة) ثم نقل من الفهلوية إلى السريانية والعربية ثم انتقل من العربية إلى السريانية الحديثة في القرن الحادي عشر الميلادي، وإلى اللغة العبرية في القرن ١٣م وغيرها من اللغات ثم جاء أنوار سهيلي الكاشفي لينقل الكتاب إلى الفارسية من خلال ترجمة سايقه نصر بن عبد الحميد «انظر الجدول الذي عرضه د. عبد الوهاب عزام في مقدمة طبعته لفلكنر ص: (٢٧).

«ثيودور بنفي» والفنلندي «أنتي أرنبي» في دراساتهم المقارنة الأصل الهندي لمجمل الحكايات الواردة في كتاب (كليلة ودمنة)^(١). أما الكتب التي نقلت عنه بعض الحكايات فمن الصعوبة القول بأنها جاءت بعده، إذ من الممكن أن تكون سابقة له. وأما مؤلف كتاب (كليلة ودمنة) بحسب إشارة علي بن الشاه الفارسي في مقدمته فهو يبدأ أحد الفلاسفة الهنود، وقد نسجه على ألسنة الحيوانات ليعظ به الملك دبشليم، ثم نقل الكتاب إلى الفهلويه ومنها إلى العربية بطريق ابن المقفع وغيره، ويرى الزيات أن الأصول الهندية والنسخة الفارسية المنقولة عنها قد فُقدت، وبقيت النسخ العربية من الترجمة ومنها انتقلت إلى لغات العالم في الزمة الحديث^(٢).

ثالثاً مقارنة بين الأبواب الواردة في كتاب (بنج تنترا) وما يقابلها في كتاب (كليلة ودمنة):

نريد أن نقف على بناء الحكاية في خمسة أبواب من كتاب (كليلة ودمنة)، وهي الأبواب نفسها التي انطوى عليها الأصل الهندي المسمى (بنج تنترا)، لنبين على وجه الدقة مقدار تصرف ابن المقفع في النص الأصلي للكتاب، مشيرين كما أسلفنا آنفاً أن كتاب (كليلة ودمنة) يزيد في أبوابه عما جاء في كتاب (بنج تنترا) وحده، بل عما جاء في كتب الهند عامة التي انطوت على أصول الكتاب، وهنا أشير إلى أن الكتاب في نسخته العربية قد زيد فيه ليس بطريق العرب فحسب بل بطريق الفرس أيضاً حين نقلوه من

(1) يونس، عبد الحميد (النجاتنترا) المقدمة ص: (٢٣).

(2) الزيات، أحمد حسن (تاريخ الأدب العربي) القاهرة ١٩٣٥ ص: (٢٣١).

السفسكرتية إلى لغتهم الفهلوية، وإن كنا لا نستطيع أن نبيّن مقدار ما أضافه الفرس إلى الكتاب سواء في عدد أبوابه أم في أفكاره، لأن النسخة الفهلوية لكتاب (كليلة ودمنة) كما يقول فلكنر والزيات مفقودة، وإن ما تعرفه الفارسية عن (كليلة ودمنة) اليوم منقول من العربية بطريق نصر الله بن عبد الحميد في القرن السادس الهجري^(١).

أ - باب الأسد والثور:

إنّ المقارنة بين باب (الأسد والثور) في كتاب (كليلة ودمنة) وباب (التفريق بين صديقين) في كتاب (بنج تنترا)، تدل على شيء من الاختلاف بين البابين سواء في عدد الحكايات التي ينطوي عليها كل باب، أم في طريقة بناء الحكايات كما تبين مقدار التصرف الذي قام به ابن المقفع في بعض الفِكْرِ التي انطوت عليها حكايات كتاب (كليلة ودمنة)، ففي باب الأسد نقف على سبعة عشر مثلاً (حكاية) في حين انطوى ما يقابل هذا الباب في كتاب (بنج تنترا) على خمس عشرة حكاية كما يوضحه الجدول الآتي:

حكايات التفريق بين صديقين في «بنج تنترا»	حكايات باب الأسد والثور في «كليلة ودمنة»
-	١ - مثل التاجر وبنيه.
-	٢ - مثل الرجل الهارب من الموت
١ - القرد والوتد	٣ - مثل القرد والنجار
٢ - وابن آوى والطبل	٤ - مثل الثعلب والطبل
٣ - الناسك والمحتال	٥ - مثل الناسك واللص والثعلب وامرأة الإسكاف

(1) عزام، عبد الوهاب (مقدمته) ص: (٣١).

٦- مثل الغراب والأسود والثعبان وابن	٤- الغريبان والحية
٧- مثل العلجوم والسرطان	٥- طائر البلشون والسرطان البحري
٨- مثل الأرنب والأسد	٦- الأسد والأرني
٩- مثل السمكات الثلاث	٧- بصيرة وبديهة وتوكل
١٠- مثل القملة والبرغوث	٨- القملة والبرغوث
١١- مثل الذئب والغراب وابن آوى والجمل	٩- الأسد والجمل
١٢- مثل البطتين والسلحفاة	١٠- الأوزة والسلحفاة
١٣- مثل العنقاء بنت الريح	١١- طائر البحر والبحر
١٤- مثل القرد والطائر والرجل	١٢- القرد واليراعة والعصفور
١٥- مثل الخب والمغفل	١٣- الخب والمغفل
١٦- مثل العلجوم والحية	١٤- طائر البلشون والثعبان
١٧- مثل التاجر والأرض التي تأكل جردانها الحديد.	١٥- النمس والجردان آكلة الحديد.

قراءة الجدول:

١- من الملاحظ أن كتاب (كليلة ودمنة) يزيد في حكاياته عن كتاب (بنج وتنترا) في حكايتين: حكاية «التاجر وبنيه» وحكاية «الرجل الهارب من الموت»، والواقع أن هذه الزيادة شكلية بمعنى أن الحكايتين المذكورتان في كتاب (بنج وتنترا) على هيئة مقدمة تمهد لحكايات الباب الأول.

٢- الحكايات الواردة في الباب الأول من كتاب (كليلة ودمنة) متفقة من حيث الموضوع مع الحكايات الواردة فيما يقابلها من كتاب (بنج تئترا) مع اختلاف بسيط في التسميات، مثل أن يكون هنالك باب في (كليلة ودمنة) عنوانه «السمكات الثلاث»، هو نفسه في كتاب (بنج تئترا) ولكن باسم «بصيرة وبديهة وتوكل»، وهكذا.

٣- هنالك خلاف في الأسماء الواردة في الحكايات ذات الموضوع الواحد، فابن المقفع مثلاً يسمي الثورين اللذين اتخذهما التاجر في هذا الباب «شنزبة» و«ندببة»، في حين أن اسميهما في كتاب بنج وتئترا «ندكا» و«سمجيفكا»، ومن الواضح أن ابن المقفع لم يتصرف في ترجمة هذين الاسمين، فلو أراد التصرف فيهما لجاء بهما معربين، فما معنى أن يستبدل اسمين أعجميين باسمين أعجميين، والأرجح أنّ النسخة التي وصلت إليه بطريق اللغة الفهلوية قد انطوت على الاسمين اللذين استعملهما في ترجمته، وقد يكون للاسمين معنى في الفهلوية، ولاسيما ان النسخة الفارسية الحديثة المنقولة عن العربية ذكرت الاسمين نفسهما (شنزبة وندببة)^(١)، ومعنى ذلك أن الذي نقل الحكايات من السنسكريتية إلى الفهلوية هو الذي تصرف في مثل هذه الحال.

٤- يظهر تصرف ابن المقفع بصورة واضحة في أفكار الكتاب إذ ورد في (بنج تئترا) أن الأسد واسمه بنجلكه حين سمع صوت الثور خاف وفرع «فلبث بجوار شجرة التين القائمة في الدوائر واتخذ وضع الدوائر الأربعة بدون أن ينبس ببنت شفة، أما وضع الدوائر الأربعة فهو كما يلي: الأسد، وحاشيته،

(١) منشي أبو المعالي (كليلة ودمنة باللغة الفارسية) تحقيق: سيد رضوي ص: (٥٧).

والكاكرفات، والكمفرتات»^(١)، وتعني الدوائر كما يُرجح مترجم الكتاب طوائف المجتمع الهندي^(٢). في حين تجاوز ابن المقفع عن ذكر كل ذلك مكثفياً بالإشارة إلى أنّ الثور شنزبة «لم يلبث أن عكّد وشحّم وترّ وجعل يحك بقرنيه الأرض ويرفع صوته بالخوار، وكان بقره أجمه فيها أسد يقال له بنكلة، وكان ملك تلك الناحية ومعه سبع كثيرة من الذئاب وبنات آوى والثعالب وغير ذلك»^(٣).

٥- لقد حاول ابن المقفع التصرف في النص الأصلي في أثناء ترجمته بما يضفي عليه روحاً عربية إسلامية، ففي بداية الباب الأول في كتاب (بنج تنترا) يرد على لسان التاجر ما يأتي: «عليك أن تحصل على الثروة عندما تكون صفر اليدين، وأن تصونها عندما تحصل عليها، وأن تنمي ما صنته، وأن تهب ما نميته لمن يستحق من الناس. هذا ما قيل لنا أن نفعله، وهذا هو النهج الذي يجب أن يكون رائدنا في الحياة الدنيا»، ويذكر مترجم الكتاب أنّ هذا الكلام منقول من كتاب هندي اسمه «كوطيليه أرثاشاستره» ينسب إلى كانيكيه^(٤). وقد حور ابن المقفع هذه الكلمة لتغدو: «إن صاحب الدنيا يتطلب ثلاثة أمور لا يدركها إلا بأربعة أشياء: أما الثلاثة التي يطلب فالسعة في المعيشة والمنزلة في الناس والزاد في الآخرة، وأما والرابعة التي يحتاج إليها في إدراكها، فاكتمساب المال من معروف وجوهه، ثم حسن القيام عليه، والشمير له بعد

(١) البنجا تنترا ص: (٣٣) الحاشية رقم (١).

(٢) المصدر السابق ص: (٣٩).

(٣) المصدر السابق ص: (٣٣).

(٤) المصدر السابق ص: (٣٠).

اكتسابه، ثم إنفاقه فيما يصلح المعيشة ويُرضي الأهل والأخوان ويعود إليه في الآخرة...»^(١).

وواضح أن ابن المقفع أراد تبيان الوجه المشروع لكسب المال، ومن ثم توجيه الكلام إلى ما يوافق التعاليم الإسلامية في هذا الباب، لأن اكتساب المال وتصريفه في وجه مشروع يدخل في العمل الصالح الذي يكون زادًا يتزود به المؤمن لآخرته.

٦- ومن أمثلة تحوير ابن المقفع للأفكار الواردة في الأصل حديثه في حكاية العنقاء وبنت الريح الواردة في باب الأسد والثور حيث يورد: «فقلت له جماعة الطير إن العنقاء بنت الريح هي سيدتنا وملكتنا فاذهب بنا إليها حتى نصيح بها فتظهر لنا فنشكو إليها ما نالك من وكيل البحر»^(٢). أما في الحكاية المماثلة المسماة «طائر البحر والبحر»، في كتاب (بنج تنترا) فيرد اسم «الجارضا»: «قال أحد الطيور: لا طاقة لنا بقتال البحر المحيط، والرأي عندي أن خير ما نفعله هو أن نشكوه كلنا إلى الجارضا، وبهذا نثيره ضده ولا شك أنه سوف يفرج كربنا»^(٣).

فابن المقفع وضع العنقاء بدلاً من الجارضا، والعنقاء عند العرب طائر أسطوري كماغ ذكر ابن الكلبي أعظم الطير جثة وأكبرها خلقة لها أربعة أجنحة من كل جانب ووجه كوجه الإنسان، تخطف الفيل كما تخطف الحداة الفأر، وكانت في قدم الزمان تُختطف من بيوت الناس فتأذوا منها إلى أن

(1) المصدر السابق ص: (٣٠) الحاشية رقم (١).

(2) المصدر السابق ص: (١٢٧).

(3) المصدر السابق ص: (٩٨).

سلبت يوماً عروساً مجلوة بجليها فدعا عليها حنظلة النبي فذهب الله بها إلى بعض جزائر البحر حيث لا يراها الناس. أما الجارضا في التراث الهندي فطائر أسطوري يمتطيه الإله «فشنو» ويعد ملك الطيور، وهو في الأصل الشمسي في صورة طائر^(١).

ومن الواضح أن ما دفع ابن المقفع إلى استبدال العنقاء بالجارضا، اتصال التسمية الهندية بتعدد الآلهة، وهذا ما يناه في العقيدة الإسلامية.

٧- كليلة ودمنة ابنا آوى ذُكرا في باب الأسد والثور أول الأبواب الأساسية في الكتاب ولم يرد لهما ذكر في سائر الأبواب، والاسمان لهما معنى في العربية فكليلة مؤنثة (كليل) والكليل في اللغة التَّعَبُ ويقال كلت الريح أي ضعفت وكل السيف إذال لم يقطع، وكذا دمنة واحدة الدمن بمعنى الآثار الدارسة أو الطلول.

أما في كتاب (بنج تنترا) فقد ورد الاسمان مختلفين فذكر اسم كرتاكة ومعناه ذو العواء المخيف بدلاً من كليلة، ودمنكة ومعناه المنتصر بدلاً من دمنة، غير أن التسمية التي وضعها ابن المقفع لهاتين الشخصيتين هي التي اشتهرت بعد ذلك فكانت اسماً للكتاب في سائر النسخ في لغات العالم اليوم.

وهاتان الشخصيتان موصوفتان في الحكاية، فكانتا من أهل الدهاء والأدب، وكان دمنة أشهرهما نفساً وأبعدهما همة، وأقلهما رضا بحاله^(٢)، والحكاية تسوق الخطاب على أن كليلة ودمنة مذكورين، مما يشير إلى أن السياق الذي وضعت الشخصيتان فيه لم يرجح المعنى العربي للاسمين كونهما

(1) المصدر نفسه ص: (٩٨).

(2) ابن المقفع (كليلة ودمنة) طبعة إلياس زخريا ط٤ دار الأندلس ١٩٨٣ م ص: (١٢٧).

بحسب اللغة مؤنثين، وهذا موضع تساؤل فهل كان ابن المقفع قد أجرى المؤنث مجرى المذكر كما نقول معاوية وحكمة ورأفة وهي ألفاظ مؤنثة تطلق على الذكور؟

كليلة في الحكاية راوية يسوق الأمثال ويضرب المواعظ وينسخ الأحداث ويعمد إلى إغفال الزمن مبتدئاً بالقول: «زعموا أن قردًا...» فقله زعموا فيه إسقاط متعمد للزمن، فنحن عملياً لا نعرف متى حدثت الحكاية التي يرويها، وهذا التجاوز مقصود لأن الحكاية تريد أن تنفلت من حيز الزمان، وتتحرر من هذا القيد لتستحيل موعظة تصلح لكل الأزمنة، وهذا التعبير ليس من اختراع ابن المقفع لأن له تعبيراً مماثلاً في (بنج تنترا) وهو «يحكى أن» الذي تردد في كل حكايات الكتاب.

٨- يبدأ باب الأسد والثور كما هو الشأن في سائر أبواب كتاب (كليلة ودمنة) بتسمية مثل، والمثل يعني الموضوع الذي تدور حوله الحكايات في كل باب، ودلالة المثل هنا تخالف ما يعرف بالأمثال العربية التي تصاغ على هيئة قول موجز قائم على اختيار الألفاظ المناسبة والمعاني الدقيقة والتشابه بين حالين، والصلة بين الأمثال الواردة في (كليلة ودمنة) والأمثال العربية تتمثل بالمشابهة مثل أن يكون ضرب المثل العربي متصلاً بالحال التي تستدعيه أي يكون مشابهاً لها، وكذا الحكايات التي تعد متناً في أبواب (كليلة ودمنة) متصلة أو مؤيدة للمثل الذي يسميه الملك في كل باب.

يبدأ السرد بكلام الفيلسوف الراوية بيديا مؤلف الكتاب اذي يصوغ قبل عرض حكاياته مقولة حكيمية موجزة مؤيدة للمثل الذي ذكره الملك كما هو الشأن في الباب الأول حيث يقول بيديا: «إذا ابتلي الرجلان المتحابان بأن

يدخل بينهما الخؤون الكذوب تقاطعاً وتدابيراً وفسد ما بينهما من مودة، وبعد ذلك تبدأ الحكاية التي يرويها الفيلسوف حتى إذا ما انتهى منها أتبعها بمثل أو حكاية أخرى إلى أن ينتهي الباب. ويتكرر الصيغ نفسه في سائر أبواب الكتاب حتى نهايته.

في حين أن فعل السرد لا يخضع لهذا الترتيب الموضوعي في حكايات (بنج تنترا)، مع أن القارئ يستطيع أن يجد تشابهاً في سياق الحكايات بين الأبواب مثل أن تكون هنالك شخصية للملك المروي له في كتاب (كليلة ودمنة) يقابلها أولاد الملك الثلاثة في (بنج تنترا)، كما أن صيغة (زعموا أن) في (كليلة ودمنة) تشبه (يحكى أن) في (بنج تنترا)، مع وجود الفارق الجوهرى من جهة بناء الحكاية في الكتابين بناء على هاتين الصيغتين مثل أن تكون عبارة (زعموا أن) فاتحة حقيقة السرد، في حين تغدو عبارة (يحكى أن) مجرد صيغة لتأسيس الحوار بين الراوي والمروي له، لأن فعل السرد يفتح حقيقة في كتاب ((بنج تنترا)) من خلال ما يرويها المؤلف مثل أن ترد عبارة «فروى فصنو شرمان هذه الحكاية»، يقابلها في كتاب (كليلة ودمنة) «قال الفيلسوف» أي يبدأ، الذي يتقنع بشخصيات أخرى مثل كليلة الذي يقوم هو الآخر بسرد الأحداث.

٩- إن بناء الحكاية في كتاب (كليلة ودمنة) يخالف بناء حكايات بنج تنترا، إذ تبدأ حكاية في كتاب (كليلة ودمنة) بتسمية المثل الذي يحدده الملك دبشليم أو المروي له، ثم يقوم الفيلسوف يبدأ بتأكيد المثل بمقولة حكمية، وبعد ذلك يروي الحكايات المختلفة المؤيدة للمثل المضروب في فاتحة كل حكاية، في حين تبدأ حكايات (بنج تنترا) بتسمية الباب بطريقة السرد كأن

يرد: «يحكى أن أسدًا في غابة نشأ بينه وبين ثور حب عظيم أخذ ينمو على الأيام، فقضى عليه ابن آوى حقوق طماع، «فهذا الكلام لا يهدف إلا إلى الإبلاغ أو الإشارة إلى عنوان هذه الحكاية الذي يدور حول الأسد والثور، وبعد ذلك يأتي تساؤل المروي لهم: «فقال أبناء الملك: وكيف كان ذلك؟» حينئذ يبدأ المؤلف برواية الحكاية حيث يعود السرد من أوله: «فروى فنصو شрман هذه الحكاية...» إذن بداية الحكاية تتحدد بما رواه المؤلف فنصو شрман بقوله: «كانت هنالك مدينة تدعى مهيلاروبيا في الإقليم الجنوبي وكان يقيم فيها تاجر يدعى فرذمانكه...» والواقع أن العبارة الأولى التي تنصدر الباب الأول في (بنج تنترا) تقوم مقام العنوان في كتاب (كليلة ودمنة)، وترتيب الحكاية في الكتابين مختلف تمامًا إذ يفتح السرد في حكايات (كليلة ودمنة) بفعل القول، ويصاغ المثل على لسان المروي له الملك دبشليم الذي يحدد موضوع كل حكاية بما يسميه مثلاً، مثل قوله في باب الأسد والثور: «اضرب لي مثل الرجلين المتحابين يقطع بينهما الكذوب الخؤون ويحملهما على العداوة والشنآن». ومعنى ذلك أن حكايات (كليلة ودمنة) تبدأ بعنوان ثم تحدد موضوع الحكاية أو ما يسمى بالمثل ثم الحكايات المؤيدة للمثل، في حين نجد في الباب الأول (بنج تنترا) عنوانين: التفريق بين صديقين، والنص الموجز الذي يتصدر الباب ويصب في العنوان نفسه أي الأسد والثور، وهما كما تقول الحكاية صديقان فرق بينهما ابن آوى، وعليه نجد هنالك ازدواجية أو تكرارًا في صدر حكايات (بنج تنترا)، في حين نجد في كتاب (كليلة ودمنة) تسلسلاً منطقيًا، وهذا بالطبع من صنيع ابن المقفع الذي بنى الحكايات بناء منطقيًا قائمًا على التماسك والتسلسل والتتابع.

١٠- يدقق كتاب (بنج تنترا) في المسميات الهندية الأصل مثل أن يذكر المدينة التي أقام فيها التاجر وهي مدينة مهيلاروبيا، كما يسمي التاجر فرذمانكه، في حين يكتفي كتاب (كليلة ودمنة) بذكر أرض دستابند، ويغفل اسم التاجر، وهذا تصرف قام به ابن المقفع لأن متلقي كتابه لا يكثر بمثل هذه المسميات، فكان كل ما يعنيه الانصراف إلى جوهر الحكاية وموطن الموعظة، من أجل ذلك يمكن إن إغفال ابن المقفع بعض المسميات في عموم كتابه قد أسهم في إزالة كثير من الطوابع الهندية للكتاب، وبالمقابل قدمه على هيئة حكاية عربية لا تشوبها المسميات الغربية التي يمكن أن تولد جفوة بين الحكاية والمتلقي، أو أنه صرفه عن التفكير في أصل الحكايات، وبذلك حرصه على أن يدرك مغزاها ولا شيء دون ذلك.

١١- إن وجوه الاختلاف بين ترجمة ابن المقفع المسماة (كليلة ودمنة) والأصل الهندي (بنج تنترا) لا تعني أن كتاب (كليلة ودمنة) شيء وكتاب (بنج تنترا) شيء آخر، بل تعني أن أحد الكتائين كان أصلاً للآخر، فهما بالتأكيد ليسا كتاباً واحداً، فقد يكون (كليلة ودمنة) أصلاً أخذت منه خمسة أبواب ثم استقلت في كتاب سمي ب(بنج تنترا)، وقد يكون (بنج تنترا) أصلاً من أصول (كليلة ودمنة) انطوى على خمسة أبواب ثم جمع إليها الأبواب الباقية المعروفة في كتاب (كليلة ودمنة) اليوم، إذ نحن نجد بجانب الاختلافات بين (كليلة ودمنة) و(بنج تنترا) نقاط اتفاق يعسر إحصاؤها من أبرزها أن الموضوع واحد في الكتائين في هذا الباب وسائر الأبواب الأخرى، كما الترتيب واحد بين الحكايات. أما اختلاف عدد الحكايات ضمن الباب الواحد أو اختلاف بعض الصيغ اللغوية والتسميات فهذا بسبب الترجمة.

١٢- إن وجوه التصرف في النسخة العربية المترجمة من الفهلوية أمر طبيعي إذا ما قورنت بالزيادات التي وجدت في النسخ الفارسية المطبوعة من كتاب (كليلة ودمنة) المنقول من العربية، إذ يجد القارئ أن الفرس قد أضافوا إلى النص الأصلي كثيرًا من الأشعار العربية والفارسية، كما أضافوا لمتنه كثيرًا من الأمثال العربية والحكم الفارسية، في عموم أبواب الكتاب، ففي باب الأسد والثور على سبيل المثال الذي سماه المترجم الفارسي (باب شير وكاو) نجد أكثر من خمسين شاهدًا شعريًا معظمها للمتنبي، ومن الطريف أن الشاهد الشعري العربي يجيء مع الشاهد الشعري الفارسي كما هو الشأن:

إذا ما كنت في أمر مروم فلا تقنع بما دون النجوم
باهمت باز وبا راي بلنك زيبا به كه شكار بيروز به جنك^(١)

ب- باب الحمامة المطوقة:

يقابل هذا الباب في كتاب (بنج تنترا) سفر «كسب الأصدقاء» وينطوي على خمس حكايات، في حين يشتمل هذا الباب في كتاب (بنج تنترا) على أربع حكايات بحسب الجدول الآتي:

باب «الحمامة المطوقة» في كليلة ودمنة	باب «كسب الأصدقاء» في بنج تنترا
١- مثل الغراب والصبياد والمطوقة والجرذ والسلحفاة	-
٢- مثل الجرذ والضيف والناسك	١- حكاية الفأر والناسك

(١) منشي، أبو المعالي (كليلة ودمنة باللغة الفارسية) ص: (٦٠).

٣- مثل المرأة البائعة السمسم المقشور بغير المقشور	٢- حكاية سمسم مقشور بآخر غير مقشور
٤- مثل الذئب ووتر القوس	٣- حكاية ابن آوى الجشع
٥- مثل الظبي وحبائل القناص	٤- حكاية أسر الغزال لأول مرة

قراءة الجدول:

١- يحافظ باب الحمامة المطوقة على طريقة البناء ذاتها التي بنى على أساسها باب الأسد والثور، إذ هنالك عنوان للباب وهناك مثل يسميه الملك، وبعد ذلك يبدأ الفيلسوف برواية الحكاية الأولى في هذا الباب، أما في باب «كسب الأصدقاء» فهو يحافظ أيضاً على طريقة البناء في كتاب (بنج تنترا) عموماً إذ يحدد المؤلف اسم الباب وموضوعه ثم يأتي بعد ذلك تساؤل المروي لهم، ثم تروى الحكاية دون أن يعطيها اسماً، غير أن مضمونها هو مضمون المثل الأول في حكايات (كليلة ودمنة)، مع اختلاف في بعض الأسماء والأوصاف، ومعنى ذلك أن الزيادة التي أشرنا إليها في كتاب (كليلة ودمنة) أنفأ شكلية، فالحكايات في البابين متساوية، لأن المثل الأول في (كليلة ودمنة) يقابله في (بنج تنترا) حكاية غير مسماة وتجيء عادة على هيئة مقدمة.

٢- هنالك اختلاف كلي في تسمية بعض الحكايات، كما هو الشأن في حكاية الذئب ووتر القوس في (كليلة ودمنة) التي يقابلها حكاية «ابن آوى الجشع» في (بنج تنترا)، دون اختلاف يذكر في الموضوع.

٣- يسمى كتاب (بنج تنترا) بداية كل حكاية ونهايتها، غير أن ثمة تداخلاً بين نهايات الحكايات فقد ترد نهاية الحكاية الأولى مثلاً في أثناء الحكاية الثانية أو الثالثة، في حين يحافظ كتاب (كليلة ودمنة) على كيان كل حكاية على حدة.

ج- باب البوم والغريان:

ينطوي باب البوم والغريان على تسع حكايات، في حين يتضمن سفر الحرب والسلام عشر حكايات كما يوضح الجدول الآتي:

باب البوم والغريان في كتاب: كليلة ودمنة	سفر الحرب والسلام في كتاب: بنج تنترا
١- مثل العداوة بين الغريان والبوم	١- حكاية حمار في جلد نمر
٢- مثل ملك القبيلة ورسول الأرنب	٢- حكاية الطيور تختار ملكًا
٣- مثل الصفرد والأرنب والسنور والصوام	٣- حكاية الفيل والأرنب والقمر والأرنب
٤- مثل الناسك والعريض والصلوص	٤- حكاية القط وطائر الحجل والأرنب
٥- مثل التاجر وامرأته والصلص	٥- حكاية البرهمي والمختالون
٦- مثل الناسك والصلص والشيطان	٦- حكاية الرجل العجوز والزوجة الشابة والصلص
٧- مثل النجار المخدوع وحميه	٧- حكاية البرهمي والصلص والغول
٨- مثل الناسك والفأرة المحولة جارية	٨- حكاية القرد والقواد
٩- مثل الأسود وملك الضفادع	٩- حكاية الفأرة العذراء
	١٠- حكاية الضفادع تركب الثعبان

قراءة الجدول:

١- تلحظ في هذا الباب زيادة في عدد حكايات سفر «الحرب والسلام» في كتاب (بنج تنترا) عما ورد في باب البوم والغريان في كتاب (كليلة ودمنة)،

تتمثل تلك الزيادة بالحكاية الأولى التي حملت اسم «حمار في جلد نمر» في كتاب (بنج تنترا)، ولم نجد لها مثيلاً في باب البوم والغريان. والحق أن حكاية «حمار في جلد نمر» كانت من الحكايات التي تنازعتها الموروثات الشعبية الشرقية والغربية فذكر د. عبد الحميد يونس أن هذه الحكاية شاعت في الخرافات اليونانية واللاتينية باسم «حمار في جلد أسد» وهناك ست حكايات في هذا الصدد منها ما رواه لوسيان في القرن الثاني الميلادي وما تردد في نسخة بابريوس في القرن الثالث الميلادي، وما جاء في خرافات أفيان اللاتيني، وفي خرافات إيسوب، ويرجح الباحث أن اليونانيين قد استبدلوا جلد الأسد بجلد النمر لأنه أظهر^(١).

٢- تصرف ابن المقفع على نحو واضح في ترجمة بعض الأسماء كما هو الشأن في عنوان الحكاية الرابعة والسادسة فجعل كلمة (ناسك) بدلاً من (برهمي)، مما يدل على أنه قد تخرج من نقل كلمة (برهمي) إلى القارئ العربي لاتصالها بعقائد الهند، ذلك لأن البراهمة كما جاء في المقدمة التي وضعها الفرس طبقة من الزهاد الهند^(٢)، ويرجح د. عبد الوهاب عزام أن هذه المقدمة ألحقت بالكتاب بعد ابن المقفع بقرنين من الزمان^(٣)، مما يشير إلى أن ابن المقفع لم يذكر شيئاً عن عقيدة البراهمة، وقد كان منهم مؤلف الكتاب، كما كان يحنح إلى تبديل هذه الكلمة حين ورودها في متن حكايات الكتاب.

(1) يونس، د. عبد الحميد (بنجاتنرا) المقدمة ص: (١٥).

(2) ابن المقفع (كليلة ودمنة) طبعة إلياس زخريا ص: (٦٠).

(3) ابن المقفع (كليلة ودمنة) طبعة عبد الوهاب عزام: ص: (١٣٥).

د. باب القرد والغيلم:

يتألف باب القرد والغيلم من حكايتين الحكاية الرئيسة حكاية القرد والغيلم، ومثل الأسد وابن آوى وأذني الحمار، هو يقابل سفر الخسران أو القرد والتمساح في (بنج تنترا)، الذي يشتمل على حكايتين أيضاً حكاية القرد والتمساح وحكاية حمار بلا قلب ولا أذنين.

وهناك اختلاف واحد بين البابين يتمثل باستبدال ابن المقفع تسمية الغيلم بالتمساح، وقد يكون الباعث على ذلك التصرف أن المترجم رأى أن التمساح غير معروف في البيئة العربية، فوجد أن الغيلم وهو ذكر السلحفاة أقرب إلى مخيلة المتلقي العربي.

هـ- باب الناسك وابن عرس:

ينطوي هذا الباب في كتاب (كليلة ودمنة) على حكايتين الأولى تدرج تحت عنوان الباب وهي حكاية الناسك، والثانية المثل الذي يعقب الحكاية الرئيسة وهو مثل الناسك وجرة السمن. أما في كتاب (بنج تنترا) فسمي ما يقابل هذا الباب بالخسران وقد انطوى على حكايتين إضافة للحكاية التي تمثل فاتحة هذا السفر وهما: حكاية البرهمي الذي بنى قصوراً في الهواء، والثانية الذي قتل الناسك. فالحكاية الأولى تلتقي مع حكاية ابن المقفع المسماة بالناسك وجرة السمن، في حين ليس للحكاية الثانية المعروضة في (بنج تنترا) في هذا السفر ما يقابلها في باب الناسك وابن عرس في كتاب (كليلة ودمنة).

لقد تصرف ابن المقفع هنا كما هو الشأن في الباب السابق فاستبدل كلمة الناسك بكلمة البرهمي، كما استبدل تعبير (ابن عرس) بكلمة (النمس) الواردة في كتاب (بنج تنترا) للغاية التي أشرنا إليها فيما سلف.

الخاتمة والنتائج:

إذا كان كتاب (بنج تنترا) كما يقول المؤرخون والباحثون في القديم والحديث أصلاً لكتاب (كليلة ودمنة)، أو هو أحد أصوله، فإن الحقيقة الشاخصة في هذه المسألة أن ابن المقفع لم يترجم الكتاب عن الفهلوية ترجمة حرفية، والاختلاف الذي أظهرته لنا المقارنة بين نص (كليلة ودمنة) ونص (بنج تنترا) تدل على أن ابن المقفع لم يكن وحده ممن أسهم في تحويل النص الأصلي لسببين: أحدهما أن ابن المقفع لم ينقل الكتاب من السنسكريتية الهندية إلى العربية مباشرة، وإنما نقله من الفهلوية الفارسية إلى العربية، ومن المحتمل أن المترجمين الفرس وعلى رأسهم برزويه الطبيب كما تسميه بعض النسخ المطبوعة من الكتاب قد أسهموا في تحويل جزء من النص الأصلي، غير أننا لا نستطيع القطع في هذه المسألة لأن الترجمة الفارسية المأخوذة من الهندية مفقودة كما قلنا.

والآخر أن كتاب (كليلة ودمنة) لم يترجم إلى العربية بطريق ابن المقفع فحسب، ذلك لأن المؤرخين قد ذكروا رجالاً آخر ترجمه بعد ابن المقفع وهو عبد الله الأهوازي بحسب إشارة حاجي خليفة، ومن المحتمل أن هذه الترجمات المختلفة قد اختلطت ببعضها ثم نُسبت لابن المقفع لأنه مشهور عند الناس. ومع ذلك فإننا نرى فيما نُسب لابن المقفع في أمر هذه الحكايات ما يأتي:

١- إن كتاب (كليلة ودمنة) المرتبط باسم ابن المقفع أول كتاب مدون في النثر الفني عند العرب، بنطوي على موضوع لم يكن شائعاً في آداب اللغة العربية قبله، وهو الحكايات الخرافية التي نُسجت على ألسنة البهائم والطيور.

٢- لقد وضع ابن المقفع بطريق تصرفه في بناء الحكايات الأصلية وتحريف

بعض مسمياتها أساساً لفن الحكاية التي تناسب ذوق المتلقي العربي وتتفق مع عقيدته، فمن جهة البناء اختار لبعض حكاياته كما هو الشأن في حكاية القرد والغليم بناء دائرياً مثل أن تبدأ الحكاية بفكرة أو عبارة ثم تختتم بالفكرة أو العبارة ذاتها، مما يشي بالبناء الدائري للحكاية، وهذه الطريقة البنائية توافق إلى حد بعيد الذهنية العربية الإسلامية في تصورها الكون، وقد انعكست هذه الطريقة في البناء والعمارة كالقناطر والأقواس والقباب وفي شكل الحروف وهذا كله يتصل بالتصور الكوني المنطلق أساساً من فكرة الدوران التي يمثلها الطواف عند المسلمين. إضافة لذلك فقد بدل ابن المقفع كل المسميات التي من شأنها المساس بالعقيدة، كالتي تتصل بتعدد الآلهة، إذ جعل العنقاء بدلاً من (الجارضا)، والناسك بدلاً من البرهمي، ثم حذف ما يتصل بالطبيعة الهندية كالكلام على الطوائف وطبقات المجتمع، وحوّر كثيراً من الأسماء التي رأى أنها بعيدة عن مخيلة القارئ العربي كالنمس والتمساح وغير ذلك.

٣- لقد كان كتاب (كليلة ودمنة) آية من آيات البيان العربي كما يقول بطرس البستاني إذ: «لم تقم ميزة ابن المقفع إلا على كتابه الخالد (كليلة ودمنة)، ففي هذا الكتاب يتجلى أسلوبه البديع الذي رفع به مستوى النثر العربي إلى أعلى درجات الفن وأشرفها»^(١).

٤- لقد مزج ابن المقفع في كتابه (كليلة ودمنة) السرد بالمنطق، وقد امتاز الكتاب بجلاوة اللفظ وطول النفس والبعد عن الغلو وحسن التساوق واستيفاء القياس وقوة المنطق والغوص وراء المعنى الدقيق، والبعد عن الجفاف في

(١) البستاني، بطرس (أدباء العرب في الأعصر العباسية) ص: (١٥٧).

الأسلوب وتجنب التعقيد^(١).

٥- أسهم ابن المقفع في تطويع اللغة العربية لتستوعب الأفكار العميقة والمعاني الدقيقة، وخلص لغة النثر الفني من السجع، وقد ظهر أسلوبه المرسل بوضوح في باب عرض الكتاب أو المقدمة التي وضعها بين يدي (كليلة ودمنة).
٦- لقد أغنى المقفع بكتابه حركة التأليف في هذا الباب فوجد الأدباء في صنيعه منهلًا عذبًا، فاستحال الكتاب لكثير من المنظومات الشعرية والحكايات التي نحت نحوه، فمن المنظومات التي حولت كتاب (كليلة ودمنة) من المنشور إلى المنظوم لغرض حفظه وتداوله، ما نظمه أبان بن عبد الحميد، إذ روى ابن المعتز أن يحيى بن خالد البرمكي قد طلب من أبي نواس أن ينظم له كتاب (كليلة ودمنة) شعرًا، فلما سمع أبان بذلك صار إليه فقال له ناصحًا: «أنت رجل مغرم بهذا الشراب لا تصبر عنه وعن الاجتماع مع إخوانك عليه، وهو لذتك من الدنيا ومتعتك، وهذا الكتاب مشهور لم ينقل إلى هذا الوقت من المنشور إلى الشعر، وإذا فعل ذلك تداوله الناس وطلبوه ونظروا فيه، فإن أنت توليته مع تشاغلِكَ بلهوك لم يتوفر عليه فكرك وخاطرك، ولم يخرج بالغا في الجودة والحسن... فظن أبو نواس أنه نصح له واستقال الأمر فاستعفى منه»^(٢)، فتلقفه أبان ونظمه فلم يبرح داره حتى قلبه من المنشور إلى المنظوم، ثم قدمه ليحيى بن خالد فأعطاه عشرة آلاف دينار.

ثم نظم ابن الهبارية في كتاب سماه «نتائج الفطنة في كليلة ودمنة»، ثم عمل منظومة أخرى سماها «درر الحكم في أمثال الهنود والعجم» أكملها

(1) المرجع نفسه.

(2) ابن المعتز (طبقات الشعراء) ص: (٢١١).

بعده عبد المؤمن بن الحسن الصاغاني وهو من رجال القرن السابع الهجري.
 ٧- لقد كان كتاب (كليلة ودمنة) ضرباً من اتلمسسامرات والحكايات
 المسلية المنطوية على حكمة وموعظة يسهل على المتلقي إدراك مغازيها
 وأهدافها، وهي من ثم جديرة بالاهتمام لأنها تريد تأسيس بنية سردية تنطلق من
 حدث واقعي فرد وهو لقاء الفيلسوف موطن الحكمة بالملك رأس السلطة، وما
 دون ذلك فأحداث الكتاب وهمية وحكاياته رمزية تحاك على ألسنة البهائم
 وةالطير، والحكايات العربية أفادت من هذه الطريقة البنائية، وقد تمثلت بصورة
 جلية في كتاب «النمر والثعلب» لسهل بن هارون (٢١٥هـ) الذي ألفه على
 شاكلو (كليلة ودمنة) فقال فيه ابن شرف القيرواني: «... نا رأيت الأوائل قد
 وضعت مثل كتاب (كليلة ودمنة) فأضافوا حكمة إلى الطير الحوائم، ونطقوا
 به على السنة الوحش والبهائم لتتعلق به شهوات الأحداث وتستعذب بسمره
 ألفاظ الحدث، وقد نحا بذا النحو سهل بن هارون الكاتب في تأليفه كتاب
 النمر والثعلب وهو مشهور الحكايات بديع المراسلات مليح المكاتبات»^(١).

ويختلف كتاب النمر والثعلب عن كتاب (كليلة ودمنة) باعتماده على
 حكاية واحدة أو موضوع واحد تعبر عنه شخصوص تقنعت بالنمر والثعلب
 والذئب، وتقول الحكاية إن الثعلب قد انتهت به السبل إلى جزيرة من جزائر
 البحر وفيها نمر يحكم جماعة من الذئاب، وقد التقى الثعلب أحد الذئاب
 فدفعه ليطلب من النمر أن يجعل له ولاية يحكمها فجعله حاكماً على الطباء
 وقد جعل الذئب الثعلب وزيراً له، غير أن الذئب تمرد على النمر وعصاه في
 أمره، وكان الثعلب نصح له بالطاعة، إلا أنه أوى فدارت حرب بينهما تغلب

(1) كرد علي، محمد (رسائل البلغاء) ص: (٢٣١).

النمر فيها على الذئب، وكاد يبطش بالثعلب لولا أنه وجدته حسن الكلام غزير العلم موفور الحكمة^(١).

٨- لقد ألف ابن الهبارية كتابًا على منوال كتاب (كليلة ودمنة) سماه (الصادح والباغم)، ولأبي عبد الله القرشي المعروف بابن ظفر المتوفى سنة ٥٩٨ هـ كتاب على رسم (كليلة ودمنة) سماه (سلوان المطاع في عدوان الطباع) كان قدمه لبعض القادة في جزيرة صقلية، وكذلك ألف ابن عرب شاه كتابًا على نسق كتاب (كليلة ودمنة) عنوانه (فاكهة الخلفاء ومناظرة الظرفاء).

٩- اعتمد المعري في جملة من رسائله على الحكاية الخرافية التي عبر عنها كتاب (كليلة ودمنة)، كما هو الشأن في رسالته المعروفة برسالة الصاهل والشاحج وهي محاورة بناها على لسان حصان وبغل، وكان صنف هذا الكتاب للأمير عزيز الدولة أبي شجاع فاتك الرومي، وله أيضًا كتاب سجع الحمايم تكلم فيه على لسان أربع حمائم، وكان بعض الرؤساء في عصره قد سأله أن يصنع له كتابًا في الفطنة والحث على التزهد. وأما كتابه المعروف بالقائف فهو مبني على هيئة أمثال (كليلة ودمنة)، وقد صنعه للأمير عزيز الدولة أبي شجاع ألف منه أربعة أجزاء ثم قطع تأليفه بسبب مقتل أبي شجاع بيد مملوك هندي سنة ٤١٣ هـ.

ومن أمثلة ما جاء في كتاب القائف للمعري قوله على لسان الحيوان: «حضرت التملة الوفاة فاجتمع حواليتها النمل، فقالت نادبتها يرحمك الله؛ أمن شعيرة محرورة أو بُرّة ممطورةٍ وآثارٍ سفرةٍ منشورةٍ؟ قالت لهن: لا تجز عن فقد

(1) الفلاح، قحطان (النثر السياسي في العصر العباسي الأول) رسالة دكتوراه في جامعة حلب/ مخطوطة/ ص: (٢٨٨).

دخرت عند الله دخييرةً من دخر مثلها جدير بالرحمة، وذلك أبي لم أسفك دمًا قطُّ»^(١).

١٠- يرى جولدتسهير أن إخوان الصفا قد تأثروا بحكايات (كليلة ودمنة)، إذ تسميه إخوان الصفا وردت في باب الحمامة المطوقة، كما أن لهم رسالة في المناظرة بين الحيوان والإنسان رجح أحمد أمين أنها ضرب من التأثير بكتاب (كليلة ودمنة)^(٢).

١١- لاحظ الجاحظ أن الرسائل والحكايات المنسوبة للفرس مصنوعة أو مولدة في قوله: «ونحن لا نستطيع أن نعلم أن الرسائل التي في أيدي الناس للفرس أنها صحيحة غير مصنوعة، وقديمة غير مولدة، إذا كان مثل ابن المقفع وسهل بن هارون وأبي عبيد الله وعبد الحميد وغيلان وفلان وفلان لا يستطيعون أن يولدوا مثل تلك الرسائل ويضعوا تلك السير»^(٣).

والواقع أن الجاحظ هنا يرمي إلى أن الأدباء الذين أشار إليهم آنفًا أرادوا أن يظهروا بثقافتهم الفارسية على العرب وثقافتهم، والجاحظ يشكك فيما نسبوه إلى الفرس من رسائل وسير؛ لأن أمثال هؤلاء لا يعجزهم اختلاق مثل هذه الرسائل وتلك الحكايات والسير، بمعنى أنه يريد أن يبين مقدار التوليد والوضع فيما هو منسوب إلى التراث الفارسي بيد نخبة من أعلام الثقافة والفكر في ذلك العصر. الحق أن ملاحظة الجاحظ فيما يتصل بابن المقفع، أو ما يتصل بكتاب (كليلة ودمنة) على وجه التحديد لم يلقَ مع التقادم كبير

(1) السقا وآخرون تعريف القدماء بأبي العلاء ص: (١ / ٢٣١).

(2) أمين، أحمد (ضحى الإسلام) ص: (١ / ١٤٥).

(3) الجاحظ (البيان والتبيين) ص: (٣ / ١٦).

تأييد، لأن معظم حكايات الكتاب قد سلمت في نسبتها إلى غير العرب كما نوهنا سابقاً، مع أن اللغة العربية بطريق ابن المقفع قد تركت بصماتها على الكتاب فصار جزءاً من تراثها، وبعد ذلك حفظته فقدمته إلى سائر اللغات الحية، إلا أن أصول تلك الحكايات ترجع إلى الثقافة الهندية بلا شك.

١٢- لم يصل إلينا قبل كتاب (كليلة ودمنة) نص أدبي مدون ومكتمل نظمن إليه، وكل ما نعرفه إزاء صور النثر العربي القديم لا يعدو كونه شذرات مبثوثة بين تضاعيف الكتب، وكان أكثرها قد نقل عن أصحابه بطريق الرواية ثم دون بعد ذلك، وهنا لا يتهيأ للباحث أكثر من وصف اللغة في تلك الآثار المنطوية على جانب من القص، وقد تحولت بعد ذلك إلى مدونات على شكل مسامرات وأحاديث، وتبدو كلها للمتأمل من جهة لغتها أنها كانت تعبر عن ذاتها بلغة شعرية، لكثرة اعتمادها على الإشارة والإيجاء والزركشة وتغليب الوجدان، وركوب الأخيلة ورسم التصاوير، وليس ذلك فحسب بل نجد كثيراً من الصور النثرية المتقدمة تعمد إلى الاستشهاد ببعض الشعر للعظة والاعتبار، أو حتى للدلالة على ما تقرره، ولما جاء ابن المقفع خلصت للنثر لغة صافية، ومختلفة عن لغة الشعر، إذ أقامها وطوعها لتحتمل التفصيل بعد أن كانت مجملة، ثم أرسلها من قيد السجع الذي كانت قد لبثت فيه منذ زمن الجاهلية، واتسعت لتستوعب المعاني الدقاق. إن ابن المقفع باختصار جعل لغة النثر العربي أداة للتعبير عن العقل، مثلما كان الشعر لغة الوجدان، ومن أجل ذلك سميت مكانته في تاريخ النثر العربي، وارتفعت قيمة كتابه (كليلة ودمنة) لأنه بحق أقدم صور النثر المدون عند العرب.

١٣- لقد أثار أسلوب ابن النقفع الفني الجديد النقاد والدارسين المحدثين

أمثال د. طه حسين الذي لم ير فيه أكثر من أسلوب مستشرق يحسن الفارسية والعربية فيوفق أحياناً ويخطئ أحياناً أخرى^(١)، وكأنه هنا قد نظر إلى قولة الجاحظ: «إن اللغتين إذا التقتا في لسان واحد أدخلت كل واحدة الضيم على صاحبتهما»^(٢)، بمعنى أن الاضطراب الأسلوبي الذي لاحظته د. طه حسين يرجع إلى جمعه العربية والفارسية في لسان واحد، حتى لكأن الفارسية بفكرها طغت على فصاحة العربية، فكانت تلك الانحرافات الأسلوبية التي أشار إليها هو وغيره. ومن الطريف أن يرجع باحث مثل د. شوقي ضيف أسباب الاضطراب في أسلوب ابن المقفع إلى توحيه الدقة البالغة، وإخراجه الأفكار المفصلة مما أدى به إلى العنت الأسلوبي^(٣). ولعله من الغريب أن كثيراً من الملاحظات التي أشار إليها الباحثون، فيما يتصل بأسلوب ابن المقفع لا تطول كتاب (كليلة ودمنة)، وربما كان السبب في ذلك أن الكتاب قد هذبت لغته بعد ابن المقفع، إذ كان الأصمعي يعيب على ابن المقفع اللحن في إضافة (ال التعريف) إلى (كل، بعض)^(٤)، ولكن هذه الهنات الأسلوبية لم تعد ظاهرة فيما طُبِع من آثار ابن المقفع، ولا سيما الطبقات العلمية لكتاب (كليلة ودمنة)، ومع ما قيل عن أسلوبه إلا أن ذلك لم يمنع كثيراً من الباحثين أن يعده آية من آيات البيان العربي^(٥).

(1) د. حسين، طه (من حديث الشعر والنثر) ط دار المعارف ص: (١٢٨).

(2) الجاحظ (البيان والتبيين) تح: عبد السلام هارون ص: (٣ / ١٦).

(3) د. ضيف، شوقي (الفن ومذاهبه في النثر العربي) ص: (١٤٤).

(4) مقدمة كتاب «كليلة ودمنة» تح: د. عزام.

(5) كرد علي، محمد (رسائل البلغاء) ص: (١٠٦).

١٤- إن الطريقة الفنية التي اعتمد عليها كتاب (كليلة ودمنة) في بناء الحكاية سرعان ما أُلقت بظلالها على المدونات السردية العربية، أعني إجراء مقابلة بين مؤلف راوية ووزير أو حاكم يُروى له، والمروى له هو الذي يُحدد موضوع السرد أو موضوع المسامرة، وقد انضوت مؤلفات كثيرة تحت هذا الإطار أقدمها كتاب الإمتاع والمؤانسة للتوحيد الذي يعد مثلاً حياً دالاً على تأثير النثر العربي بطريقة ابن المقفع، وكان التوحيدي قد التقى بالوزير ابن العارض فسامره سبعا وثلاثين ليلة، كان الوزير يطرح في كل ليلة على التوحيدي سؤالاً ثم يجيب التوحيدي عنه، ثم نقل ما دار بينه وبين الوزير في كتابه الأنف بطلب من صديقه أبي الوفاء المهندس لينتفع به الناس^(١)، كما يندرج تحت إطار ذلك السرد ما كتبه سهل بن هارون والمعري، وما جاء في حكايات ألف ليلة وليلة الشعبية وغيرها كثير وهي تؤدي إلى الغاية نفسها التي دوّنت من أجلها حكايات (كليلة ودمنة) بوصفها تنطوي على الموعدة والحكمة التي تنفع الناس.

(١) التوحيدي (الإمتاع والمؤانسة) ص: (٣٢٥).

المصادر والمراجع:

- ١- أمين، أحمد (ضحى الإسلام) طبع في القاهرة ١٩٣٣م.
- ٢- البستاني، بطرس (أدباء العرب في الأعصر العباسية) طبع دار مارون عبود بيروت ١٩٧٩م.
- ٣- البيروني، أبو الريحان (تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مردولة) طبعة ليدن ١٨٨٧م.
- ٤- التوحيدى، (الإمتاع والمؤانسة) تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين ط القاهرة ١٩٤٢م.
- ٥- الجاحظ، (البيان والتبيين) تحقيق عبد السلام هارون القاهرة ١٩٤٥م.
- ٦- جمعة، حسين (ابن المقفع بين حضارتين) منشورات المستشارية الإيرانية بدمشق ٢٠٠٣م.
- ٧- حاجي خليفة، (كشف الظنون) طبع وكالة المعارف بمصر ١٩٤١م.
- ٨- حسين، د. طه (من حديث الشعر والنثر) ط دار المعارف بمصر ١٩٦٩م.
- ٩- ابن خلكان، (وفيات الأعيان) تحقيق د. إحسان عباس ط دار صادر بيروت ١٩٩٤م.
- ١٠- السقا، وآخرون (تعريف القدماء بأبي العلاء) ط دار المعارف ١٩٥٤م.
- ١١- الزيات، أحمد حسن (تاريخ الأدب العربي) طبع القاهرة ١٩٣٥م.
- ١٢- ضيف، د. شوقي (الفن ومذاهبه في النثر العربي) ط ٣ دار المعارف بمصر ١٩٧٤م.

- ١٣- عبد القادر، حامد (قصة الأدب الفارسي) طبع مكتبة نهضة مصر
١٩٥١م.
- ١٤- الفلاح، قحطان (النثر السياسي في العصر العباسي الأول) رسالة
دكتوراه مخطوطة جامعة حلب.
- ١٥- كرد علي، محمد (رسائل البلغاء) طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة
١٩٥٤م.
- ١٦- ابن المعتز، عبد الله (طبقات الشعراء) تحقيق عبد الستار أحمد فراج ط ٢
دار المعارف بمصر.
- ١٧- ابن المقفع، (كليلة ودمنة):
- تحقيق د. عبد الوهاب عزام د. طه حسين ط ١ طبع دار المعارف بمصر
١٩٤١م.
- تحقيق إلياس زخريا ط ٤ دار الأندلس بيروت ١٩٨٣م.
- ١٨- الملاح، عبد الإله (مترجم كتاب المهاباراتا - الملحمة الهندية) نشر بدمشق
٢٠٠٢م.
- ١٩- منشي، (كليلة ودمنة بالفارسية) تحقيق سيد رضوي نشر بهاباد شيراز -
إيران.
- ٢٠- يونس، عبد الحميد (مترجم كتاب البنجا تنتر) ط الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٨٠م.